هكذا حج رسول الله

صلى الله عليه وسلم

د. محمد عبده يماني

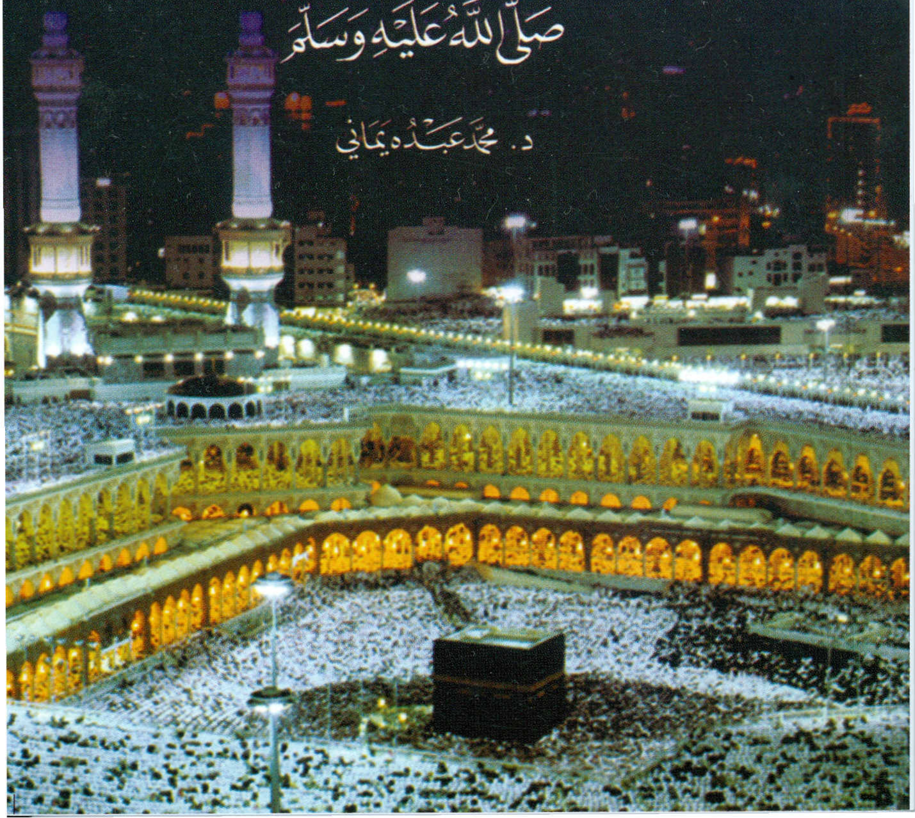

هكذا

حج رسول الله ﷺ

صلى الله عليه وسلم

هكذا

حج رسول الله ﷺ

صلى الله عليه وسلم

الدكتور محمد عبده يماني

دار القبلة للثقافة الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعـــة الأولـــى

١٤٢١هـ

دار القبلة للثقافة الإسلامية

المملكة العربية السعودية - جدة - ص.ب: ١٠٩٣٢ - الرمز: ٢١٤٤٣

ت: ٦٦٥٢٤٠٦ / ٦٦٥٩٩٥١ / فاكس: ٦٦٥٩٤٧٦

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أمر الله سبحانه وتعالى نبيه إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن يرفع القواعد من البيت وأن يطهره للمتعبدين، ثم طلب منه أن يؤذن في الناس بالحج، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ ولبّى الخليل - صلوات الله عليه - ما أُمِر به، فرفع القواعد وهيّأ البيت الحرام وأذّن في الناس بالحج موليًا وجهه إلى أركان الدنيا الأربعة.

وأبلغ الله تعالى نداء إبراهيم إلى الآفاق البعيدة، فاندفع المؤمنون يلبون النداء من الأرجاء الواسعة والفجاج العميقة قاصدين بيت الله المحرم، وبرغم مرور عشرات القرون ظل

هذا النداء يملأ القلوب والتقوى فتهوي إلى البيت العتيق كل عام لتطوف بالبيت وتفي بالنذر وتلقي عن كواهلها الأوزار.

لكن مع تطاول الزمن ومرور الأعوام ينحرف الناس بعض الانحراف عن ملة إبراهيم الخليل فيملؤون بيت الله بالأوثان والأصنام.. يجعلون لها من عبادتهم نصيباً. ثم يأذن الله أن يصحح لهم انحرافهم فيبعث سيدنا محمداً ﷺ بالحنيفية السمحة، ليجدد ملّة إبراهيم، ويطهر بيته من أرجاس الوثنية، ويجعل الحج إليه من أركان دينه الحنيف.

ومكث رسول الله ﷺ في المدينة ثماني سنوات لم يحجّ، ثم فرض الحج في السنة التاسعة فأمر أبا بكر رضي الله عنه أن يحج بالناس، ثم أردف علياً رضي الله عنه أن يبلغ الناس عنه ثلاث آيات من أول براءة، فقرأها عليّ على الناس يوم النحر بمنى، وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

ثم أذّن في الناس بالعاشرة أن رسول الله ﷺ حاج؛ فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل

مثله[١].

وقد توسع العلماء في شرح مناسك الحج وفصَّلوا في جوانبها وجزئياتها حتى امتلأت منها مجلدات.

لذلك كانت الحاجة ماسّة إلى كتيبات صغيرة يستوعبها معظم الناس.

ونحن حين نقدم هذا الكتاب في هذه الأيام المباركة نرجو أن تعم به الفائدة لأنه استوفى المناسك كما جاءت عن رسول الله ﷺ. ولا ننسى أن حجة الوداع اشتملت على خطبة الرسول ﷺ التي بيَّن للناس فيها كثيراً مما يجب عليهم الالتزام به من عباداتهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم، فهي وثيقة هامة لما اشتملت عليه من مبادىء وأسس على كل مسلم أن يتفهمها ويلتزم بها.

والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

---

(١) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، في الصحيحين وغيرهما.

هكذا حج رسول الله

صلى الله عليه وسلم

ما أروع أن نحج كما حج رسول الله ﷺ، وما أجمل الاقتداء به في جميع شؤون حياتنا، لأنه القدوة، ولأنه الأسوة ولأنه المعلم والمهذِّب والهادي إلى صراط الله المستقيم. والحمد لله الذي أكرمنا بنعمة الإسلام وبعث إلينا خير الأنام وجعله ﷺ الأسوة الحسنة في كل أقواله وأحواله وأفعاله وفي كل شأن من شؤونه.. في توحيده وإيمانه، وفي صلاته وصيامه، وفي حجه واعتماره، وفي قنوته وقيامه، وفي جوده وسخائه، وفي جهاده وصبره، وفي بيته، وبين أهله وأصحابه، وفي حلمه وتواضعه وعفوه، وفي دعوته وتبليغه، وفي سائر شؤونه ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

والحديث عن فريضة الحج لا ينفك عن حياته وهديه ﷺ فعنه تلقت الأمـة فرائض الله على عبـاده، ومن جملتها فريضة الحج، ومنه تعلمت أحكامه؛ ولهذا وجب التأسِّي برسول الله ﷺ؛ لأنه يمثل الاتباع الصادق للقرآن الكريم

وتجسيد العمل بآياته فقد كان خُلُقه القرآن وكان الصورة العملية لتعاليم القرآن والترجمة الدقيقة الأمينة لآياته ولهذا فقد دعانا ﷺ لأخذ القدوة عنه في أقواله وأفعاله وعباداته حين علمنا: «صلوا كما رأيتموني أصلي» وفي الحج «خذوا عني مناسككم».

ولقد حرصت في هذا الكتيب على تبسيط هذا الجانب المشرق من سيرته ﷺ في الحج امتثالاً لأمره: «نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[(١)]. وأحاول فيه أن أتتبع حجته ﷺ حتى نأخذ عنه المناسك ونتلمس الأفعال والأقوال ونعيش تلك الذكرى العطرة المتجددة كل عام، ونحس بأننا في هذا النسك الكبير نسير على خطاه ونهتدي بهديه.

ولقد ظهر هذا الكتاب على هيئة حلقات في جريدة «الشرق الأوسط» وكان الهدف من هذه الحلقات التيسير والتبسيط لعامة الناس ممن يرغبون تتبع حجة المصطفى ﷺ، وأخذ المناسك عنه، ولهذا فقد رجعت إلى عدة مصادر

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم.

ومراجع ثم عمدت إلى دمجها وتبسيطها ووضعها في هذه الصورة التي أرجو لها القبول إن شاء الله عز وجل، وما توفيقي إلا بالله.

ولا شك أن أهم ما يجب الاهتمام به هو عملية التجرد لله تعالى والإخلاص له وصدق النية، وطيب المأكل والمشرب والملبس والمركب، والابتعاد عن كل ما حرم الله عز وجل، وترويض النفس على الطاعة والامتثال، وطهارتها من كل رجس وحقد وظلم، وكل سلوك منحرف، والاقلاع عن كل تعمد لمعصية. وعلى الحاج أن يحاول التفقه في أمور الحج على قدر ما يستطيع حتى يأتي حجه كاملاً. ومن المناسب الإقبال على حلقات العلم في الحرمين وفيهما من العلماء من يبسط قضايا الحج وييسرها ويعلم الناس على هدي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والأفضل أن يتفقه في بلده على عالم، وأن يكون حجه بصحبة عالم، وأن يأخذ معه كتاباً يرجع إليه عند كل عمل من أعمال الحج.

إذن فلننظر كيف حج صلوات الله وسلامه عليه.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله ـ في زاد المعاد ـ إن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر، ولا خلاف في أن حجة

الوداع كانت في السنة العاشرة للهجرة، وهي الحجة الوحيدة التي حجها صلوات الله وسلامه عليه في حياته الشريفة الطاهرة الراشدة.

الأذان بالحج:

لما عزم ﷺ على الحج في السنة العاشرة أذن في الناس أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يتأهب للحج، فكان أول من علم بذلك بطبيعة الحال هم أهل المدينة ومن حولها، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يريد ان يحج مع النبي ﷺ، فتجمعوا لهذه الغاية، فخطبهم المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، وبين لهم مناسك الحج ليسهل عليهم متابعته، وأمرهم أن يأخذوا عنه المناسك، وهو يطبقها أمامهم عملياً في الحج منسكاً بعد منسك.

وفي يوم الخميس لست بقين من ذي القعدة صلى بهم الظهر أربعاً، ثم خرج وخرجوا معه قاصدين ذا الحُليفة، وتسامع الناس بخروجه فتوافدوا من جميع الأصقاع، زرافاتٍ ووحدانا حتى بلغ عددهم مبلغاً لا يعلمه إلا الله، فارقوا أوطانهم وخلفوا أولادهم وأسرهم وهجروا الراحات

واستعذبوا المشقات فارين إلى الله، يتدافعون رجالاً وعلى كل ضامر، تهدهدهم الأشواق إلى البيت العتيق وتتراءى لهم الأنوار من غار حراء، وتصحبهم الملائكة من كل حدب وصوب، وتنقلهم إلى حظائر الملأ الأعلى قسمات ذلك الوجه الأزهر والجبين الأنور، كلما امتدت أعناقهم لتمتلىء عيونهم برؤية من اصطفاه الله تعالى وفضله على جميع العالمين ـ صلوات الله وسلامه عليه.

هكذا انطلق النبي ﷺ ومعه هذا الموكب الذي لا تقف العين منه عند حد، ولا يحيط به البصر مهما امتد، ساروا وكأنهم الأمواج في بحر لُجِّيٍّ، كلما هبطوا من عل، أو عبروا ربوة تكاد الأرض ترتج تحت أقدامهم الطاهرة، وكأن الشمس تطلع من جباههم النائرة، يحيطون بالنبي الكريم من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، وأرواحهم معلقة به وقلوبهم تكاد تتفطر من حبه، ولو استطاعوا لحملوه على رموش العيون وفي الأحداق فضلاً عن الأعناق، ولو قدروا لحملوه وتحملوا عنه كل ما للسفر من مشاق، تقرباً إلى الكريم الحنان، وابتغاء مرضاة الودود الرحمن، وشكراً له تعالى على هذه النعمة العظمى والرحمة المهداة إذ بعث

فيهم: ﴿ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ اللهم صل وسلم وبارك عليه.

رؤوف بالعباد:

ولا شك أن هؤلاء الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ خلفوا وراءهم أقواماً لا يقلون عنهم شوقاً إلى البيت، ولا حرصاً على صحبة النبي ﷺ، ولا رغبة في أداء هذه الفريضة المقدسة العظيمة، ولكن الله تعالى رؤوف بالعباد، ومن رأفته تعالى أنه لم يفرض الحج إلا على من استطاع إليه سبيلاً.

وفي الجهاد قال ﷺ فيما رواه البخاري: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: نعم، حبسهم العذر.

والله تعالى يقول: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ فاستثنى الله سبحانه وتعالى ﴿أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ أي من حبسهم العذر.

فانظر كيف يراعي الله تعالى في أوامره ونواهيه أحوال عباده ومختلف ظروفهم ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ و ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. إنه بعباده لطيف خبير.

حدود الاستطاعة:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والاستطاعة نوعان:

استطاعة المرء بنفسه.

واستطاعة تحصيله بغيره.

فالأولى تتعلق بخمسة أمور: الراحلة لمن بينه وبين مكة مرحلتان فصاعداً، والزاد، وأمن الطريق، وصحة البدن، وإمكان السير.

وسواء قدر على المركوب بثمن المثل أو أجرة المثل فاضلاً عما يحتاج إليه.

ويشترط في الزاد ما يكفيه لذهابه ورجوعه فاضلاً عما يحتاج إليه لنفقة من تلزمه نفقتهم وكسوتهم وفاضلاً عن مسكن وقضاء دين.

والمقصود بأمن الطريق الأمن على النفس والمال والبضع فلا يجب على المرأة حتى تأمن على نفسها بزوج أو محرم (أو نسوة ثقات على رأي بعض الأئمة).

والمراد بصحة البدن أن يكون قادراً بنفسه فلا يجب على الأعمى حتى يجد قائداً.

وأما استطاعة التحصيل بغيره فهو أن يعجز عن الحج بنفسه بموت، أو يعجز عنه بسبب زمانةٍ أو مرض لا يرجى زواله أو هرم، ويسمى المعضوب.

فيجب الحج عن الميت إن كان له تركة، وإلا فلا يجب على الوارث، ويجوز لغيره أن يحج عنه.

وأما المعضوب فلا يصح الحج عنه إلا بإذنه، ولا تلزمه الاستنابة إلا إن وجد مالاً يستأجر به من يحج.

ومن هنا ترى سماحة الدين الإسلامي ويسره، وبناء تشريعاته على رفع الحرج ومراعاة مقتضيات الظروف والأحوال ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

اللهم رضينا بك رباً وبالإسلام ديناً، وبنبيك سيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

في ذي الحُليفة:

وصل الركب الميمون ذا الحليفة ـ وهو ميقات أهل المدينة ـ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «وقَّتَ رسول الله ﷺ لأهل المدينة ذا الحليفة، ولأهل الشام ومصر الجُحْفَةَ (بضم الجيم وسكون الحاء) ولأهلِ العراق ذاتَ عِرْق، ولأهل نجد قَرْناً، ولأهل اليمن يلَمْلَمْ، ثم قال ﷺ: «هن لأهلهن، ولكل آت عليهن من غير أهلهن ممن أراد الحج والعمرة» وهذا مما اتفق عليه البخاري ومسلم، وقد أخذ أهل العلم جميعاً بهذا الحديث.

والمراد بقوله: «ولكل آت عليهن من غير أهلهن» ـ أي من مر بهذه المواقيت من غير أهلهن سواء له ميقات أو لم يكن ـ وهذا يوضح أن الجحفة مثلاً ليست خاصة بأهل الشام ومصر، وإنما يدخل فيهن من وراءهن من أهل الأندلس والروم والتكرور. وقرن المنازل لأهل نجد ومن أتى عليه من

أهل العراق، ويدخل معهم سائر أهل المشرق. إلى غير ذلك مما هو مفصل في كتب الفقه.

فانظر إلى تيسير الله على الناس، فإن الوضع الطبيعي هو أن يكون ذو الحليفة ميقات جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، لأن النبي ﷺ أحرم منه والاقتداء به ﷺ واجب بطبيعة الحال، ولكن ـ دفعاً للحرج ودرأً للمشقة ورحمة بالأمة ـ عدّد رسول الله ﷺ المواقيت تبعاً لاختلاف الجهات التي يفد الناس منها إلى الحج، فلله سبحانه وتعالى الحمد والشكر على هذه النعم التي لا نستطيع حصرها، ولا نقوى على ما تتطلبه من الثناء، وحسبك أن النبي ﷺ يقول في بعض ما يناجي به ربه عز وجل: «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

والعجز عن درك الإدراك إدراك.

ولما وصل ﷺ الميقات (ذا الحليفة) صلى بالناس العصر قصراً، وليس القصر في الصلاة مقصوراً على الحج وحده، وإنما يشمل كل سفر سوغت مسافته القصر. وهذا أيضاً من تيسير الله لعباده «وإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن

تؤتى عزائمه»[1].

قالت عائشة رضي الله عنها: وما عزائمه؟ قال: «فرائضه».

التمهيد للشروع في أعمال الحج:

بات رسول الله ﷺ هو ومن معه تلك الليلة في ذي الحليفة، وبعد أن صلى بهم الصبح وبعد أن أشرقت الشمس شرعوا يتأهبون للدخول في أعمال الحج، فبدأوا بقضاء تفثهم ،وإزالة الشعر من الأماكن التي يزال منها، وتقليم الأظافر، وحف الشوارب إلى غير ذلك تأسياً بقدوتهم المثلى سيد الأولين والآخرين، كما أنه مما رغب فيه الإسلام ـ لما فيه من الفائدة ـ فإنهم إن أحرموا فلن يحل لهم أن يفعلوا شيئاً من ذلك ما داموا محرمين، ثم اغتسل النبي ﷺ واغتسلوا ـ كل ذلك من النظافة التي يحث عليها الإسلام ويربطها بكثير من عباداته، كالوضوء للصلاة، والغسل للجنابة، والغسلللجمعة. والغسل مسنون للحائض والنفساء، فقد

(١) رواه ابن حبان والطبراني والبيهقي.

وضعت أسماء بنت عميس ـ رضي الله عنها ـ محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما فأرسلت إلى رسول الله ﷺ كيف أصنع قال: «اغتسلي واستثفري بثوب وأحرمي»[1] ويؤخذ منه جواز الإحرام للنفساء والحائض، وهو مجمع عليه، واستحباب غسل الإحرام للنفساء والاستثفار إنما هو أن تأخذ خرقة عريضة تجعلها على محل الدم وتشد طرفيها من قدامها ومن ورائها بمشد في وسطها، إلى غير ذلك مما هو معروف. ثم لبسوا ملابس الإحرام بعد أن تجردوا من المحيط والمخيط.

وإذا لبس المرء ملابس الإحرام فليس يعني هذا أنه أحرم كما هو معروف، ملابس الإحرام شيء والإحرام شيء آخر، الإحرام معناه: نية الدخول في أعمال الحج، فإن أراد العمرة يقول «نويت العمرة وأحرمت بها لله عز وجل، لبيك اللهم بعمرة لبيك» وإن أراد الحج يقول «نويت الحج وأحرمت به لله عز وجل، لبيك اللهم بحج لبيك» وإن أراد القران يقول «نويت الحج والعمرة وأحرمت بهما لله تعالى، لبيك اللهم

(١) رواه مسلم من حديث جابر.

لبيك بحج وعمرة لبيك»، ثم يبدأ التلبية: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، ويكثر من التلبية ما استطاع فإنها شعار الحج.

وبعد أن لبس ﷺ ملابس الإحرام ذهب إلى مسجد ذي الحليفة ممتطياً ناقته القصواء، وصلى به ركعتين ثم أهلَّ بالحج. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «خرجنا مع رسول الله ﷺ فقال: من أراد منكم أن يهلَّ بحج وعمرة فليفعل، ومن أراد أن يهل بحج فليهلّ، ومن أراد أن يهل بعمرة فليهلّ، قالت عائشة رضي الله عنها: فأهل رسول الله ﷺ بحج وأهل به ناس معه، وأهل ناس بالعمرة والحج، وأهل ناس بعمرة، وكنت فيمن أهل بالعمرة»[1]. قال ابن قدامة في المغني: «وأجمع أهل العلم على جواز الإحرام بأي الأنساك شاء، واختلفوا في أفضلها «فالأفضل الإفراد عند الشافعية والمالكية لأن النبي ﷺ حج مفرداً، والأفضل التمتع عند السادة الحنفية لأن حج النبي ﷺ انتهى قارناً، لأنه أدخل العمرة على الحج، ولا يشك عاقل في أن أفضلها هو ما قام

---

(١) رواه مسلم كما جاء مثله في البخاري.

به ﷺ وإن أجزأ غيره من الأنساك الثلاثة.

وانطلق النبي ﷺ وهو على ناقته القصواء يلبي، ومعه هذه الحشود الضخمة تردد خلفه ﷺ لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

وتتجاوب جنبات الوادي معهم أصداء هذا النغم العلوي الذي تهدر به هذه الألوف المؤلفة من الحجاج، نابعاً من قلوبهم المؤمنة به، أقوى ما يكون الإيمان، معزوفاً على أوتار عزماتهم المندفعة به أشد ما يكون الاندفاع.

إن هذه التلبية الصادرة من هذه القلوب الطاهرة، وبهذه الأصوات الهادرة، إنما جاءت بعد النظافة الحسية من غسل وتقليم أظافر. الخ. الخ. وهذه النظافة الحسية التي ولدت الطهارة المعنوية، التي هي المقصد الأول والأخير من كل عمل بدني شرع في الحج أو في غيره من الفرائض، والطهارة المعنوية تحصل بإخلاص العمل لله عز وجل، والرغبة في ثوابه، والتوبة من الذنوب توبة نصوحاً.

ألا ترى كيف تركوا الملاذ، وهجروا الراحات، واستعذبوا العذاب من أجل مقصودهم الأسمى، ومطلبهم

الأطهر فخلفوا وراءهم زوجاتهم، وودعوا فلذات أكبادهم، واستودعوا الله كل ما أنعم به عليهم من قبل «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل والمال والولد» لبيك اللهم لبيك.. إنهم ألزموا أنفسهم بكل ما ألزم الله به في الحج فلا رفث ـ الجماع ودواعيه ـ ولا فسوق (تجنب الذنوب) بعزيمة أشد وأقوى من ذي قبل، حتى يرجعوا من حجهم كيوم ولدتهم أمهاتهم، ولا جدال يخلف الضغائن، ويشوش على العلاقات الوجدانية بين المتجادلين، والحج إنما فرض ليؤلف بين القلوب، ويجمع بين المؤمنين، ويغرس الحب والطهر في نفوس الطائفين، والعاكفين والركع السجود..

وهكذا ما من مدخل يتحايل إبليس على الدخول منه ليشوش عليهم هذا الصفاء، هذا الطهر، هذا التسامي، أو يعكر عليهم هذا الجو من الأنس بالله، والانقطاع الكامل إليه والانحباس التام عليه، من فتنة المال، أو فتنة الولد، أو فتنة الخوف على أي متاع من متاع الدنيا كل ذلك تركوه وراءهم وهم يقولون: «لبيك اللهم لبيك» أي إجابة لك بعد إجابة، جئناك حفايا عرايا نرجو رحمتك ونخشى عذابك، «إن

الحمد والنعمة لك والملك» أي إن جميع أنواع الحمد خاصة لك ولا يستحقها غيرك أنت المنعم بجميع أنواع النعم، «لبيك لا شريك لك لبيك» أي إجابة لك وحدك، وخسر من أجاب غير داعيك، الملك كله لله، لا شريك له يتصرف فيه معه، أو يستقل به دونه «لو أن الأمة كلها اجتمعت على أن يضروك بشيء، لن يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك ولو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك».

وهكذا تتجرد هذه الأرواح الطاهرة من كل محيط، ومن كل مخيط، ويلبسون ثياباً واحدة هي الإزار والرداء الأبيضين، ليس معهما شيء، لا فرق بين غني وفقير، ولا بين صغير وكبير، ولا بين عربي وعجمي، فكلهم فيه سواء.. وهكذا يسعون إلى الله ويجيبون داعيه إجابة بعد إجابة، لبيك اللهم لبيك، وهكذا ينعكس بياض «إحراماتهم» من أجسادهم إلى قلوبهم، كأنما ولدوا لتوهم، لم يدنسهم إثم، ولم يلوثهم ذنب، لأن كل ذنب اقترفوه، وكل جرم اجترحوه، يأملون عفو الله وغفرانه، وأن يخرجوت من ذنوبهم كيوم ولدتهم أمهاتهم، ولا شك أن كل ذنوبهم

تتساقط بعد إتمام حجهم على الوجه المشروع، وإنعام الله عليهم بالرضا والقبول «فالحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» كما علمنا رسول الله ﷺ: و«من حج ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

وهكذا ترتفع أصواتهم بالتلبية، وتنعم قلوبهم العامرة بالله، بلذة الأنس به، والاجتماع عليه.

قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ يرفعه الله إلى نفسه دون حاجة إلى من يرفعه إليه وإنما يسجله الكرام الكاتبون ليزهو به مع أصحابه يوم القيامة، ويقول كل منهم ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾.

وسار الموكب كما علمت، والتلبية لها هدير يهز الآفاق، وعبير يضمخ الأجواء، وأنوار تشع من القلوب، «لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك».

فمروا في طريقهم بالأبواء، وهو المكان الذي وافت المنية ـ على أحد قولين ـ والدة سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد ﷺ وهي عائدة به إلى مكة المكرمة، بعد زيارته لأخواله بني النجار، وكان والده ﷺ قد توفي قبلها وهو في

بطن أمه، لتنفرد العناية الإلهية بتربيته ﷺ في كفالة جده عبد المطلب، ثم عمه أبي طالب من بعده، قال ﷺ: «أدبني ربي فأحسن تأديبي» (الحديث). ثم ما لبث الموكب أن مر بوادي عسفان، ولم يكن سيدنا محمد ﷺ أول نبي يمر بهذا الوادي، فقد تشرفت جنباته بأنفاس سيدنا هود، وسيدنا صالح عليهما السلام في طريقهما إلى البيت العتيق، محرمين، متقربين إلى الله بالحج إلى أول بيت وضع للناس، ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾. إبراهيم الذي ما أمره الله بشيء إلا وفَّى به، حتى إنه لم يتردد لحظة واحدة في امتثال أمر ربه بذبح فلذة كبده وقرة عينه، مثال البر، مثال التقوى، مثال الطهر، وقد رزقه عليه السلام في كبر، وهرم، وشيبة. فلما أسلمه وتله للجبين، ومرر السكين على قلبه وكبده هو قبل أن يمررها على عنق ولده، ممتثلاً أمر الله، راضياً بحكمه لما رأى في المنام أنه يذبحه، ورؤيا الأنبياء حق، فناداه أرحم الراحمين: ﴿أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾. سلام على إبراهيم.

بلاء إبراهيم عليه السلام

ولا شك أن الموكب وهو يمر بوادي عسفان تتمثل أما
عينيه رؤى هذين النبيين العظيمين، وهما يغذان السير
ويسرعان الخطا، وهما يتمثلان موقف أبيهما إبراهي
عَلَيْهِ السَّلَامُ، أبي الأنبياء أجمعين، وقد رفع الله عنه هذا البلا
المبين، وافتدى ابنه بذبح عظيم، وجعل له لسان صدق ف
الآخرين، يذكر الناس صنيعه هذا جيلاً بعد جيل. في إكبا
ما مثله إكبار، وباعتبار لا يدانيه اعتبار، سلام على إبراهيم
إنا كذلك نجزي المحسنين. وهنا يقف كل امرء - من هؤلا
الحجيج أو غيرهم - عاجزاً عن شكر الله عز وجل، إنه تعال
لم يطلب منه أن يذبح ابنه، إنما طلب منه أيسر من ذلك ب
لا يقاس عليه وهو مع ذلك، مفرط في جنب الله، والله م
ذلك يغفر له، إن استغفره، ولا يعامله بالمثل. فهو يرز
وإن عصا، ويقبل عليه وإن أدبر عنه، ويستميله إلى التو
وإن تمادى في الجموح، فهو ﴿ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِ
وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾. ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ

بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾.

لا شك أن هذا الموكب تتعاقب على خاطره مثل هذه الأفكار، وهو متجه إلى البيت العتيق، فيزداد تعلقاً بربه، ورجاء عفوه، وتمتلىء جوانحه بهذه المشاعر الجياشة التي تنسكب كلما ذكر إبراهيم المطيع، وذكر ابنه البار الراضي بقضاء الله وقدره، عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام. ويستمر الموكب حتى إذا وصل إلى «سرف» - على مشارف مكة - يصيب سيدتنا عائشة رضي الله عنها ما يصيب النساء عادة من الدورات الشهرية المعروفة، وحزنت عائشة رضي الله عنها خشية أن يحول ذلك دون أداء المناسك في أول حجة يحجها المسلمون والمسلمات مع رسول الله ﷺ وهو شرف لا يهبه الله إلا لمن أحب واصطفى، وكان من الفائزين، ودخل عليها الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وهي تكاد تتلوى من الأحزان المبرحة، دخل عليها الرسول صلوات الله وسلامه عليه فرآها تبكي ففهم أنها حاضت، فقال: أنفست؟ - يعني الحيضة - قالت: نعم، فقال لها: مواسياً ومخففاً عنها حزنها وبكاءها؟ إن هذا شيء كتبه الله على بنات آدم، فاقضي ما يقضي الحاج، غير أن لا تطوفي

بالبيت حتى تغتسلي . !!

فاطمأنت وطابت نفساً، وذهب عنها ما كان بها من الحزن والغم والآلام، ولم يخطر ببالها أن الله تعالى بحكمته وفضله أراد أن يشرع للنساء من خلال ما أصابها إظهاراً لفضلها وتخليداً لذكرها، وفلا يتحدث عن الحج فقيه ولا خطيب، ولا يكتب شيء، ولا يحج حاج ولا حاجة إلا ذكر حكم حج الحائض من خلال ما أصابها في حجها، وما شرعه النبي ﷺ للحوائض من النساء بذكرها .

* * *

عائشة وأسماء ابنتا أبي بكر
رضي الله عنهم

أحرمت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بالحج فلما كان النبي ﷺ بسرف أمر من لم يَسُق الهديَ أن يتحلل بعمرة وبما أنها لم تسق الهدي فقد تحللت بعمرة .

ولما نزل عليها دم الحيض ولم تتمكن من أداء العمرة قبل الحج لأن الحيض حال دون طواف العمرة أمرها ﷺ أن تدخل الحج على العمرة فصارت قارنة، فلما أتمت حجها قالت : يا رسول الله أترجع صواحبي بحج وعمرة، وأرجع أنا بالحج، فأمر رسول الله ﷺ أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر أن يذهب بها إلى التنعيم وتحرم بعمرة، وقد أحرمت بعمرة وأدتها بعد أداء مناسك الحج كما أمر رسول الله ﷺ .

أما أسماء بنت أبي بكر زوج الزبير بن العوام رضي الله عنهم ففي صحيح مسلم أن أسماء قالت : خرجنا محرمين فقال رسول الله ﷺ : «من كان معه هدي فليقم على إحرامه» (يعني من كان مفرداً أو قارناً) «ومن لم يكن معه هدي فليتحلل» فلم يكن معي هدي فتحللت . وكان مع الزبير هدي فلم يتحلل . قالت : فلبست ثيابي ثم خرجت فجلست إلى

الزبير فقال: قومي عني فقلت: أتخشى أن أثب عليك. فسكت الزبير رضي الله عنها فلم يجبها، وهذا دليل على أنها ليست بحائض ولذا فإنها أدت عمرتها، ثم أحرمت بالحج يوم التروية، فحجت متمتعة، وحج الزبير قارناً.

ومضى الوفد الميمون حتى أمسك عن التلبية حين رأى سيدنا محمداً ﷺ يمسك عنها، حين وصلوا أدنى الحرم. ونزل ﷺ هو ومن معه بذي طوى، وباتوا فيه ليلة الأحد لأربع خلون من ذي الحجة.

وصلى بهم عليه الصلاة والسلام فجر ذلك اليوم، وازدادت أشواقهم لدخول البيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا، وشرفه على جميع الأماكن والبقاع، ما عدا ذلك الجزء الذي يضم جسد سيد الأولين والآخرين، فإنه أعظم بقعة على وجه المعمورة، بإجماع كافة المسلمين، ومازالت الأشواق تعصف بهم لدخول البيت العتيق والطواف به، ولا غرو فقديماً قيل:

وأعظم مايكون الشوق يوما .. إذا دنت الخيام من الخيام

فما لبثوا إلا يسيرا حتى اغتسل ﷺ واغتسلوا اقتداءً به، وأخذاً لمناسكهم عنه كما أمر بذلك عليه الصلاة والسلام ثم

ساروا، يتقدمهم المصطفى صلوات الله وسلامه عليه حتى دخلوا مكة المكرمة من كدا الثنية العليا بالبطحاء المشرفة على المقبرة، ليتمكن الناس من رؤيته ﷺ، وسار ﷺ يتبعه الركب الميمون، حتى أتى المسجد الحرام ضحى، فأناخ راحلته، ثم دخل من باب بني شيبة، ولما واجه ﷺ البيت الحرام كبر وقال: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، حينا ربنا بالسلام، اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً، ومهابة، وزد من حجه، أو اعتمره، تكريماً وتشريفاً وتعظيماً وبراً».

حول الحجر الأسود:

وجعل البيت عن يساره في الطواف. ثم بدأ بالحجر الأسود فكبر الله ثم قبله ولم يزاحم عليه ـ وليت إخواننا الحجاج يقتدون بهديه ﷺ في ذلك، وفي غير ذلك ـ فإن التزاحم على تقبيل الحجر يؤذي كثيراً من الضعفاء، بل كثيراً من الأقوياء، وربما زاد الإثم على الأجر الذي يكتبه الله له بتقبيل الحجر، فيكون الحاج مخطئاً أو ربما آثماً في بعض الأحيان إذا تعمد أو أغلظ أو قسا على ضعيف أو مسكين،

فإن الله تعالى لا يتقرب إليه بإيذاء خلقه، خاصة إذا كانوا ضيوفه، ومحل نظره تعالى، وموضع إكرامه، وقد نهى سيدنا محمد ﷺ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن مزاحمة الحجيج في تقبيل الحجر، حتى لا يتسبب في أذى يجرح حجته، ويقلل مثوبته، إن الله تعالى يحب الرفق في كل شيء ويحب من عباده الرحماء. والراحمون يرحمهم الرحمن.

ليت الحجاج حين يأتون للحج، يأتون وهم مزودون بمعرفة الآداب المحمدية السامية، بنفس الدرجة التي يتعرفون بها على المناسك، فإن المناسك إنما هي بمثابة الجسد، والتأدب بآداب السنة النبوية وروحها، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾، ويقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ لأن الصلاة بلا خشوع، إنما هي جسد بلا روح، وكذلك الحج. إن ما يقوم به الحجاج في موسم الحج يعرض على شاشات التلفزيون، في مشارق الأرض ومغاربها، وإننا جميعاً نحب أن نظهر للمسلمين وغير المسلمين خاصة، على الهيئة التي حثنا عليها سيدنا محمد ﷺ، بالكيفية التي يرضاها الله

ورسوله، حتى نستميل قلوب غير المسلمين إلى الإسلام، وحتى لا ننفرهم منه، إن رؤية الحجاج وهم يتزاحمون على تقبيل الحجر الأسود بهذه الصورة التي سمعت شيخنا العلامة المرحوم حسن المشاط يسميها «وحشية» وهو عالم يعرف ما يقول ويعني ما يقول، وأشهد الله أنني لقد سمعتها منه، إن رؤية الحجاج بهذه الصورة، لا تخدم الإسلام، وإنما تقف عقبة أمامه عند هؤلاء الغربيين الذين يقدسون النظام، ويجعلونه من أكبر -إن لم يكن أكبر- مقاييس التقدم والتحضر والإنسانية.. فليتق الله هؤلاء المزاحمون على الحجر في الضعفاء، وليتقوه في هذه الصورة التي يعطونها عن الإسلام.

وفور دخوله ﷺ توجه إلى البيت العتيق، ليؤدي تحية المسجد ـ وتحية البيت الطواف ـ نعم تحية البيت «الطواف».

ومعنى ذلك أنه مختلف عن جميع المساجد، التي هي في نفس الوقت بيوت الله، التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وهذه كلها تحيتها ركعتان، بخلاف البيت العتيق، لأنه أول بيت وضع للناس، فما زال هذا البيت يطوف به الطائفون، وتطوف به الملائكة تكريماً لهذا البيت، وتشريفاً

له، وتعظيماً. وما زال هذا البيت محل التعظيم والتكريم منذ عهد أبينا آدم عليه السلام، حتى اليوم، بل وحتى تتبدل الأرض غير الأرض والسموات..

ولقد بلغ من عظمة هذا البيت المشرف المقدس أن النبي ﷺ، لما عاد إلى مكة استقبل الكعبة وقال: «إنك لخير أرض الله عز وجل، وأحب بلاد الله تعالى إليّ، ولولا أني أُخرجت منك لما خرجت، ولا شك أن مكة المكرمة إنما نالت هذه المكانة لوجود البيت العتيق فيها.. ولهذا أقسم الله تعالى بها في القرآن من بين ما أقسم به، فقال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، يعني مكة المكرمة.

وهكذا فعل المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، كبر أولاً، ثم قبل الحجر، تعظيماً لما عظم الله، ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾(١).. ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾(٢)..

وجعل ﷺ البيت على يساره.. هكذا فعل عليه الصلاة

---

(١) سورة الحج - الآية ٣٢.

(٢) سورة الحج - الآية ٢٠.

والسلام، وهكذا أمرنا أن نأخذ مناسكنا عنه.

وقد اضطبع رسول الله ﷺ واضطبع أصحابه في كل أشواط الطواف ورمل ﷺ في الأشواط الثلاثة الأولى ومشى متمهلاً فيما تبقى، ويعلل الفقهاء «الاضطباع والرمل»، فيقولون إن الغرض منه هو إظهار القوة أمام أعداء الإسلام من القرشيين الذين قالوا عن المسلمين حين جاؤوا لعمرة القضاء: (أنهكتهم حمى يثرب) فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يكشفوا أيديهم اليمنى، وأن يرملوا في الأشواط الثلاثة الأولى، وأن يمشوا ما بين الركنين، ليرى المشركون قوتهم، فلما رأت قريش ذلك قالت: ما وهنتهم!! وظل الرمل على ما هو عليه سنة في كل طواف يعقبه سعي وكذلك الاضطباع سنة في كل أشواط الطواف في كل طواف يعقبه سعي فقد قال ﷺ: «خذوا عني مناسككم».

وأعمال الحج كلها مبنية على التسليم، مبنية على السمع والطاعة لا محل للعقل فيها وإنما المجال فيها للاقتداء دون أخذ ورد.. بدأت بالقبلة.. ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ

مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ ﴾ إننا لا نسأل لماذا نقبل الحجر الأسود، وهو حجر لا يضر ولا ينفع كما قال سيدنا عمر رضي الله عنه، ولا لماذا نطوف بالبيت، ولو ذكر العلماء لها حكماً كثيرة، وإنها تذكر بمواقف إيمانية عظيمة تدل على التسليم والخضوع لأمر الله سبحانه وتعالى.. فقد مر بك كيف أن سيدنا إبراهيم عليه السلام أمر بذبح فلذة كبده، فامتثل، سلم، أسلم وجهه لله وهو محسن، أمره الله أن يسكن زوجه هاجر، وطفلها الذي رزقه على كبر، إسماعيل عليه السلام، بواد غير ذي زرع، فسلم وامتثل، ولمّا قال سيدنا إبراهيم لابنه إني أرى في المنام أني أذبحك، أسلم إسماعيل أمره لله وقال: قال يا أبت افعل ما تؤمر، سلم الصبي الصغير واستسلم لمراد الله عز وجل، كما سلم أبوه العظيم الأواه الحليم المنيب على نبينا وعليهما أفضل الصلاة والتسليم.. العبادات كلها مبنية على الرضى والتسليم، لماذا كان المغرب ثلاث ركعات، والعشاء أربعاً، لماذا نجهر هنا، ولا نجهر هناك، لماذا نصوم رمضان، أو كتب علينا أن نصوم شهر رمضان، ولا نصوم غيره من الشهور؟.

فالعبادات مبنية على التسليم رغم ما وراءها من حكم

عالية، وأسرار باهرة قد يدركها العقل أحياناً فتسمى معقولة المعنى وقد لا يدركها. والأمور التي من هذا القبيل تسمى أموراً تعبدية وكثيراً ما تكون في العبادات وتقل في المعاملات، فإن مجال العقل فيها واسع، ذلك لأن العبادات هي ما يطلبه الله من العبد، مع رفع الحرج. والمعاملات تختص بمصلحة العبد، فنحن نعلم إلى حد بعيد الحكمة في الطلاق مثلاً، الحكمة في القصاص، والحكمة في الحدود من خلال التعامل.

ومن عجائب التشريع أن ربط الله تعالى مناسك الحج ببطولات فيها أكبر العبر، وأعظم العظات فهاجر عليها السلام، حينما تركها سيدنا إبراهيم هي وطفلها عليه السلام سألت: لمن تتركنا هنا يا إبراهيم؟.. فيقول لها: تركتكم لله، فتقول هي في ثقة بربها: إنه لن يضيعنا (وفي رواية فلم يجب فقالت: آلله أمرك بهذا؟.. قال: نعم.. قالت: إذن لا يضيعنا)، فانظر إلى هذا الإيمان، وإلى هذا التوكل، وإلى هذا التسليم.. ثم انظر إلى رحمة الله تعالى بنا إذ لم يكلفنا هذا، أو مثل هذا، رحمة بنا، ولكننا نستمد من هذه الواقعة المقدسة قوة الإيمان.. وعندما نرى البيت العتيق، نستمد

منها شحنات إيمانية تعيننا على أداء ما كلفنا به مما هو في حدود استطاعتنا، قل مثل ذلك في سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو يقبل - بتوفيق الله - على طاعة الله فيما أمره به من ذبح ابنه، ذبح فلذة كبده، ذبح مهجة قلبه، في غاية الرضا، والقبول والاستسلام والتسليم، ولربما كان موقف ابنه أعجب..

إن مناسك الحج إنما هي كالمشكاة التي ضرب الله لنا المثل بها في سورة النور ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ تستمد منه أرواحنا الهداية، والقوة والصبر على محاب الله، ومراضيه، مؤتمين في ذلك بسيد الهداة، وإمام المتقين.. فعنه ﷺ نأخذ المناسك، ونؤديها كما أداها، علمنا الحكمة منها أم لم نعلم، مستسلمين، كما استسلمت هاجر، وكما استسلم إسماعيل، للذبح، واستسلم أبوه أبو الأنبياء للبلاء الكبير.. صلوات الله على نبينا، وعليهم أجمعين..

وأتموا الأشواط السبعة، وكلما مروا بالركن اليماني استلموه في غير مزاحمة، مسبلين مكبرين اقتداء بالنبي ﷺ،

كما اقتدوا به في تقبيل الحجر الأسود[١] مرددين فيما بين هذين الركنين (ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار) فإن الله تعالى رب الدنيا، ورب الآخرة، وعنده خزائن السموات والأرض، من خيري الدنيا والآخرة، ونحن مركبون من جسد وروح، فنطلب للجسد حسنة الدنيا، وللروح حسنة الآخرة، وما كان عطاء ربك محظوراً.

ثم توجه ﷺ إلى المقام فقرأ ﷺ ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ بفتح الخاء وكسرها: فتحها على المدح والإطراء، وكسرها على الهدى والإرشاد.. ومقام إبراهيم هو الحجر

---

(١) قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم: «إن للبيت أربعة أركان: الركن الأسود، والركن اليماني، ويقال اليمانيان للتغليب (كما تقول العمران لأبي بكر وعمر) وأما الركنان الآخران فيقال لهما الشاميان، فالركن الأسود فيه فضيلتان: إحداهما كونه على قواعد إبراهيم، والثانية كون الحجر الأسود فيه، وأما اليماني ففيه فضيلة واحدة، وهي كونه على قواعد إبراهيم، وأما الركنان الآخران فليس فيهما شيء من هاتين الفضيلتين، فلهذا خص الحجر الأسود بسنة الاستلام والتقبيل، وأما اليماني فيستلم ولا يقبل، لأن فيه فضيلة واحدة، وأما الركنان الآخران، فلا يقبلان ولا يستلمان».

الذي كان يقوم عليه سيدنا إبراهيم، وهو يرفع القواعد من البيت وإسماعيل، عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة، وأتم التسليم، استمد هذا الشرف، وهذه المزية من قيام إبراهيم عليه، والأماكن تبارك بما يلامسها. . وكذلك الأزمنة، شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن. . والله يختص برحمته من يشاء وكان ﷺ يرفع صوته وهو يقول واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى بحيث يسمعه الناس.

وصلى ﷺ ركعتي الطواف، قرأ في الأولى الفاتحة والكافرون، وفي الثانية الفاتحة والإخلاص، وفي سورتي (الكافرون) و (الإخلاص) كل دعائم التوحيد، أما الفاتحة فهي قمة التبتل والمناجاة.

وتبعه في ذلك أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين الذين كانوا يتتبعون خطاه ويسيرون على هداه.

بعد الطواف أقبل النبي ﷺ على الحجر الأسود فاستلمه وقام بين الركن والباب فوضع عليه صدره ووجهه وذراعيه وكفيه وبسطهما بسطاً حتى لا يكاد جزء من جسده الشريف إلا ومس الملتزم ليعلم الناس كيف يبالغون في الالتجاء إلى الله، والتذلل والضراعة والدعاء، وفي تعظيم بيته المحرم،

أدباً مع الله وحده وابتغاء مرضاته في حدود ما شرعه الله وما سنه أو بينه حبيبه الأعظم صلوات الله وسلامه عليه.

والمسلم حين يطوف بالبيت أو يقبل الحجر أو يلتزم الكعبة فإنه لا يفعل ذلك إلا تقرباً إلى الله وامتثالاً لأمره، وعملاً بشرعه الذي شرعه لنا رسوله الأمين ﷺ، ولسان حاله كما قال الشاعر:

لولاك ما شاقني بيت ولا نسك   ولا سعت بي إلى نحو الحمى قدم
فما «العتيق» سوى أني أراك به   وما الطواف وما الأركان تستلم
ليهن قوم على «عرفاتكم» وقفوا   غانين عنها وأنت الله قصدهمو
كيف «التجرد» والإحرام من دنس   ما زال في الحل مهما ضمه الحرم

فلما قضى حاجته من الدعاء والتذلل والالتجاء إلى الله تعالى، وإظهار الافتقار إليه، أتى ﷺ زمزم وهي البئر التي فجرها الله تعالى لسيدتنا هاجر وابنها إسماعيل عليه السلام، وهكذا فجر الله زمزم هذه فكانت مصدر خير لسيدتنا هاجر

ولابنها الرضيع عليه السلام ومصدر خير لهذا البلد الذي تجبى إليه ثمرات كل شيء، فلما رأت الطيور الماء تداعت إليه وأقبلت عليه، فاستدل بنو جرهم على الماء، واستأذنوا في الانتفاع به، على ن يضمنوا لهاجر وولدها الرضيع حاجتهما من الرزق وحسن الجوار.

وقد أقبل ﷺ يشرب منها ويعلم الناس أن هذا الماء مبارك فيه ويدل أصحابه على الشرب منها تبركاً، وأخذ يصب على رأسه الشريف منها، وكذلك فعل أصحابه رضوان الله عليهم، وكذلك يفعل الناس حتى اليوم إلى أن تتبدل الأرض غير الأرض والسموات وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فعن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في هذا الماء: إنها مباركة، إنها طعام طعم، وشفاء سقم[(١)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ماء زمزم لما شرب له، فإن شربته تستشفي شفاك الله، وإن شربته مستعيذاً عاذك الله، وإن شربته يقطع ظمأك قطعه[(٢)].

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي.

(٢) رواه الحاكم والدارقطني وغيرهما، وفيه أن النبي ﷺ أرسل إلى سهيل =

ونحن إذ نشربه ينبغي أن نتذكر المثل الرائع النادر الفريد الذي ضربته سيدتنا هاجر في التوكل على الله وحسن الظن به، بل وضربه أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام حين أسكن زوجه ومعها فلذة كبده بواد غير ذي زرع عند هذا البيت المحرم، أول بيت وضع للناس، امتثالاً لأمر الله تعالى واثقاً أنهما في أمان الله وحفظه من كل سوء كما جاء في الحديث القدسي: «أنا عند حسن ظن عبدي»[(١)].

اللهم ارزقنا حسن الظن بك وحب الخير لعبادك واجعلنا ممن إذا حج بيتك المحرم، أو امتثل أمرك في أي أمر من الأمور لم يقصد إلا وجهك الكريم، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة.

«ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» وأدخلنا الجنة مع الأبرار برحمتك يا غفار.

= ابن عمرو أن اهد لنا من ماء زمزم، فبعث إليه بزاملتين أي ناقتين تحملان الماء.

(١) رواه البخاري والإمام أحمد.

السعي بين الصفا والمروة:

ثم عمد ﷺ إلى السعي فخرج من باب الصفا وهو جبل قريب من الكعبة بقي منه محل صغير مرتفع قريب من باب الصفا حيث بدأ بما بدأ به عز وجل حين قال: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ قدم الله تعالى في الذكر الصفا على المروة، ثم رقى ﷺ واستقبل القبلة ودعا الله بما شاء، ليعلم الناس المواطن التي يكون فيها الدعاء أرجى للقبول، وأفضل ما سئل الله العفو والعافية ثم كبر الله ثلاثاً، وأثنى عليه عز وجل وقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده لا شريك له أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.

ثم دعا بين ذلك وكرر هذا ثلاث مرات وصلى على رسوله، أي طلب من الله أن يصلي عليه وهذا أيضاً من كمال أدبه ﷺ، فإذا كان الله تعالى يصلي عليه فمن الأدب أن يظهر أنه محتاج إلى هذا الفضل وهذا التشريف من الله عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وفي هذا أيضاً تربية لنا وتعليم: ﴿ لَّقَدْ

كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[١].

ثم انحدر ﷺ نحو المروة مشتغلاً بالذكر والدعاء حتى إذا وصل إلى بطن المسيل وذلك بين العمودين الأخضرين خب، (والخبب فوق الرمل، والرمل كما رأيت في الطواف فوق المشي ودون الجري إلا أن الخبب أشد من الرمل) فإذا وصل إلى العمود الأخضر الثاني ترك الخبب وهكذا في كل الأشواط السبعة.

ولما وصل ﷺ المروة (وكان ذلك نهاية الشوط الأول) رقى عليها حتى نظر إلى البيت العتيق وفعل ما تقدم في الصفا، ثم انحدر إلى الصفا، وكرر ما فعله بها وكان هذا نهاية الشوط الثاني. واستمر ﷺ حتى إذا أكمل الأشواط السبعة مبتدئاً بالصفا منتهياً بالمروة وبذلك كانت له ﷺ أربع وقفات على الصفا وأربع على المروة مختتماً بها السعي بين الصفا والمروة، وهنا لا بد من وقفة عابرة عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾. أي لا إثم عليه أن يطوف

---

(١) سورة الأحزاب - الآية ٢١.

بينهما سعياً، سبعة أشواط فإن كثيراً من الناس يتوقفون عند قوله تعالى ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ من هذه الآية الشريفة، والذي عليه إجماع الأمة أنها نزلت لما كره المسلمون السعي بين الصفا والمروة لأن الناس في الجاهلية كانوا يطوفون بهما، وعليهما صنمان يمسحونهما، فأعلمهم الله تعالى أن لا حرج في السعي بينهما على الرغم من ذلك وهذا كما يقول العلماء لا ينافي فرضيتهما فإن السعي بينهما باتفاق المسلمين ركن لا يصح بدونه حج ولا عمرة.

هاجر وإسماعيل:

والأصل في مشروعية السعي هو ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء إبراهيم عليه السلام بهاجر وابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفل إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل وقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء قالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: آلله أمرك بهذا،

قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا ثم رجعت، وانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه ثم قال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ وجعلت أم إسماعيل ترضعه وتشربه من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل إليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً، فعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس فذلك سعي الناس بينهما (يعني فتلك الحكمة أو العلة في سعي الناس بينهما) فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت صه (بفتح الصاد وسكون الهاء) تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع

زمزم فبحث بعقبه (أو قال بجناحه شك الراوي) حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه (أي تجعل له جنبات تحفظ الماء مثل الحوض)، وتقول بيدها: تغترف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغترف.. قال فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك لا تخافا الضيعة، فإن ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، فإن الله لا يضيع أهله.

بلاء الرسول:

فانظر إلى هذا البلاء ما أشده، وقد ابتلى سيدنا محمد ﷺ بأشد من ذلك وصبر واحتسب ﷺ فقد جمع له الله المعجزات الحسية والمعنوية فكان بلاؤه ﷺ من نوع هذه ومن نوع تيك. ألا ترى أن الله تعالى حين أثنى على أنبيائه الكرام العظام (صلوات الله وسلامه عليهم) أثنى على كل من أثنى عليه منهم بصفة أو صفات قليلة من الخلق المتعددة فقال: ﴿وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.. الخ.. الخ.. ولكنه تعالى حين أثنى عليه ﷺ أثنى عليه بما يجعل كل هذه الصفات وجميعها في شخصه ويزيد عليها بما شاء الله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ لا شاكراً

فحسب ولا صابراً فحسب ولا صادقاً فحسب ولا.. ولا.. وإنما كل هذه مجتمعة مضافاً إليها كل ما يمكن أن يتصوره العقل من جوانب الخلق العظيم.

فنحن حين نحج وتلوح لنا آثار هذه البطولات الفذة والابتلاءات العظيمة التي اختص بها الله أبا الأنبياء سيدنا إبراهيم ونجله العظيم إسماعيل وزوجه الطاهرة الصابرة المباركة سيدتنا هاجر على نبينا وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، نعم حين نحج ونشاهد تلكم الآثار الخالدة التالدة ونتملى من ورائها تلكم العظمات الباسقة الشامخة الفريدة ينبغي أن نتأكد أنها أقل بكثير مما اختص به تعالى نبيه الأكرم وحبيبه الأعظم سيدنا محمداً ﷺ.. الذي قال فيه شوقي رحمه الله:

كيف ترقى رقيك الأنبياء
يا سماء ما طاولتها سماء
إنما مثلوا صفاتك للناس
كما مثل النجوم الماء

عليك أفضل الصلاة والسلام أيها النبي الكريم والرسول العظيم.

ولما أكمل ﷺ سعيه عند المروة أمر كل من لا هدي معه، أن يتحلل من الإحرام سواء أكان قارناً أم مفرداً، ويجعلها عمرة، (وصفة القران أن ينوي العمرة والحج معاً، وصفة الإفراد أن ينوي الحج وحده دون العمرة وله أن ينوي العمرة وحدها ويسمى حينئذ متمتعاً).

وكان ممن لم يحل، وبقى على إحرامه في حجة الوداع ساداتنا أبو بكر وعمر وطلحة والزبير وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين مقتدين بسيدنا محمد ﷺ، فقد أمر كل من ساق هدياً أن يظل على إحرامه وقال: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولأحللت» ولعل في هذه بشرى لمن جاء بعده، فإن الناس اليوم لا يسوقون الهدي، ويشق عليهم ذلك، وكان من شأنه ﷺ التيسير في الحج يتجلى ذلك في الأسئلة التي سألها بعض الصحابة وقد مر بك طرف منها في السابق.

ونزل ﷺ بالأبطح من مكة المكرمة، هو ومن معه وبقوا هناك من يوم الأحد إلى الخميس يوم التروية، وهو الثامن من ذي الحجة، وسمي يوم التروية لأنهم كانوا يعدون فيه الماء اللازم لهم في أيام الحج، وفي هذا تعليم للحجاج أن يصلوا

يفي المساجد القريبة مساكنهم لئلا يزدحم الحرم بالحجاج في هذه الأيام التي يبلغ الزحام فيها ذروته، والزحام في أيامنا هذه أضعاف الزحام في حجة النبي ﷺ، لو كانت الصلاة في المسجد الحرام للحجاج أفضل ما نزل بأصحابه بالأبطح، وصلى بالصحابة هناك أربعة أيام.

وفي اليوم الثامن أحرم في هذا اليوم كل من كان قد تحلل من الصحابة رضوان الله عليهم، وأحرموا من الأبطح نفسه، وتوجهوا نحو منى حيث صلى ﷺ بهم ظهر ذلك اليوم، وما تلاه من الصلوات المفروضة بما في ذلك صبح يوم الجمعة، التاسع من ذي الحجة، ولم يكن يجمع ﷺ وإنما قصر.

وقد ترك معظم الناس في هذا الزمان التوجه إلى منى في يوم التروية، ولا دم على من فعل ذلك بطبيعة الحال، ولكن فاته خير كثير، وما أروع أن نقتدي به ﷺ في كل أمورنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، ورسول الله ﷺ، لم يفعل ذلك عبثاً، بل أمرنا أن نصلي كما صلى. وأن نحج كما حج. ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، ذلك فضل يؤتيه الله من يشاء. «ومنى» هذه محل معروف بينه وبين مكة بضعة أميال، وقالوا وسمي بذلك لأن

سيدنا إبراهيم تمنى فيه كشف ما نزل به من ذبح ولده إسماعيل عليه السلام فإن كان ذلك فهو كمال الأدب، فإن الله تعالى يقول: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾.. وإن لم يكن فذلك محض العبودية له، وكمال التسليم لقضائه، مع تمام التفويض لما يريد العبد، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ.. ﴾. ولعل هذا هو الأوفق بما عرف عن سيدنا إبراهيم عليه السلام .

الذهاب إلى عرفات:

هذا، وبعد طلوع الشمس من يوم الجمعة التاسع من ذي الحجة غادر هو وصحبه منى متوجهين إلى عرفات.. تكاد الأشواق تكون لهم مطايا تنقلهم إليها، ويكاد الحنين يعصف بهم.. وكأني بالملائكة تطل من فوق سبع سموات إلى هذا المشهد الذي يكاد أن يستحيل إلى جذوة من المشاعر الملتهبة، والأحاسيس المتفجرة، وتستمع إلى هذه التلبية الخالدة الهادرة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، وتتعجب من هذه الأرواح التي تود لو خرجت من الجسوم التي تبقى حبيسة فيها، حتى تصل إلى عرفات أسرع من

غمضة الطرف وأسرع من ومضة البرق.. يا لروعة الموقف.

وهكذا يجيء هذا الوفد إلى عرفات ليعظم حرمات الله في هذا الموقف العظيم.

وهكذا جاء هذا الوفد ليعبدوا الله في عرفات، ويتقربوا إليه بالدعوات الصادقات، حتى لكأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه، فإنهم يشعرون ويحسون بأنه يراهم.

ها هو الوفد يتوجه بأرواحه قبل أجساده نحو عرفة، ولم يقف الوفد عند المشعر الحرام بالمزدلفة وينزل هنالك، كما كانت تفعل قريش في الجاهلية، ولكنه واصل السير حتى وصل نمرة، حيث كانت قد ضربت فيه للنبي ﷺ قبة كان قد أمر بها قبل أن يغادر منى صلوات الله وسلامه عليه.

ونزل ﷺ بالقبة وأصحابه رضوان الله عليهم، يلهجون بالتكبير ويضجون بالتلبية.

ولما زالت الشمس أمر بالقصواء فامتطاها صلوات الله وسلامه عليه، ثم سار حتى أتى بطن ذلك الوادي الذي تلاحمت فيه، وتعانقت، واتحدت أنوار غار حراء وأنوار طور سينين، من ذلك المنبر، واتجه صلوات الله وسلامه عليه إلى العالم أجمع من كان منهم حاضراً ومن كان غائباً،

من ولد منهم ومن لم يولد حتى تتبدل الأرض غير الأرض والسموات، اتجه ﷺ وخطبهم جميعاً، وكما أذن الخليل في الناس بالحج فجعل أذانه يتردد في الناس جيلاً بعد جيل، كذلك خطب المصطفى صلوات الله عليه وسلامه خطبة في الناس جميعاً ما زالت أصداؤها تتردد في الآفاق، وستظل تتردد حتى يقوم الناس لرب العالمين.

الخطبة الرائعة:

وهذا نص خطبة النبي ﷺ في عرفات كما جاءت في صحيح مسلم:

«أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائكم دم ابن ربيعة بن الحارث وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربانا: ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة واستحللتم فروجهن بكلمة الله، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلوا

ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإني قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله، وأنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت، وأديت ونصحت فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد»[(١)].

«أيها الناس..» هكذا استهل خطبته ﷺ، ولم يقل أيها المؤمنون، ولم يقل أيها الحجاج.. «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا» لم يفرق صلوات الله وسلامه عليه في هذا الحكم، بين سيد، ومولى، ولا بين شريف، ووضيع.. المساواة التامة التي كان الإسلام أول من شرع في تشييد دعائمها، وأقام أركانها وطبقها الرسول صلوات الله وسلامه عليه، تطبيقاً بيناً واضحاً، وسما بالأمة وارتقى بها عن أوحال الجاهلية.. إن كل أمر من أمور الجاهلية تحت قدمي هاتين.

---

(١) حجة النبي ﷺ كما رواها عنه جابر رضي الله عنه ـ محمد ناصر الدين الألباني.

أيها الناس. . «إن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله. .» انظر كيف بدأ بعباس بن عبد المطلب الذي كانت مواقفه، قبل أن يشهر إسلامه كلها في صف النبي ﷺ وفي حمايته حتى قال بعضهم إنه كان رجلاً يكتم إيمانه.

وهكذا استمر صلوات الله وسلامه عليه يضع للناس كافة الأسس القويمة الراسخة التي لو ساروا عليها جميعاً لعاشوا آمنين مطمئنين يأتيهم رزقهم رغداً من كل مكان ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١).

وقال ﷺ: «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

ولما أتم رسول الله ﷺ خطبته أمر بلالاً فأذن بلال كما أذن في فتح مكة، وبلال نفسه يؤذن في هذا المشهد العظيم

---

(١) سورة الأعراف ـ الآية: ٩٦

الرهيب. . . إن الأذان في هذين الموطنين خاصة لشرف تتقاصر عنه الأطماع، وتشرئب إليه الأعناق. ويشهد الله لقد كان في بني هاشم، فضلاً عن قريش، من كان صوته أجهر، ونغماته أجمل، ولكن الرسول ﷺ، خص بلالاً بهذا الشرف، فأعزه وأكرمه، وقدمه للأذان وكذلك كرم سلمان رضي الله عنه عندما قال سلمان منا أهل البيت، ليعلمنا أنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، وأنه لا يستوي من سبق إلى الإسلام وجاهد وصبر مع من تثاقل عنه وتأخر ولو كان سيداً قرشياً.

أيها المسلمون، وأنتم تحجون كل عام لا بد أن تتذكروا هذه المآثر وتعلموا هذه المفاخر، ولا تمروا عليها مرور الغافلين، بل يجب أن تتعمقوا في أبعاد هذه القدوة الحسنة وهذه المآثر الجليلة وهذه الخطوات المباركة التي خطاها رسول الله ﷺ، وحرص على أن يعلمنا إياها لتكون نبراساً يضيء لنا الطريق.

ولما فرغ سيدنا بلال رضي الله عنه من الأذان أقيمت الصلاة فصلى ﷺ الظهر بالناس قصراً، ثم أقيمت الصلاة، فصلى ﷺ العصر بالناس قصراً. . ولم يصل بينهما بل كانتا

متتابعتين، وإنما جمعهما جمع تقديم بأذان واحد وإقامتين. . ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾. وإن الله ليحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه. . ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثم يأتي بعد ذلك الوقوف بعرفة. . وما أدراك ما هذا الوقوف. . روعة وجلالاً، وهيبة وقدسية وسمواً. . وذلك ما يُعيي البيان ويعقد اللسان وتقف البلاغة مهما سمت عنده حيرى دهشة لا تُبدىء ولا تعيد. .

بعد أن صلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالصحابة الظهر والعصر قصراً وجمع تقديم، كما بيّنا، امتطى ﷺ ناقته القصواء، وسار حتى وقف عند الصخرات العظام في أسفل جبل الرحمة، وهو الجبل الذي يتوسط عرفة، وهذا وإن كان أفضل موقف يقفه الحاج، لما فيه من الاقتداء العملي برسول الله ﷺ، إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام، رحمة بأمته، وهو الذي وصفه الله بأنه الرؤوف الرحيم، قال: «وقفت هنا وعرفة كلها موقف، وارتفعوا عن بطن عرنة»[1].

---

(١) رواه الإمام مالك ومسلم رضي الله عنهما.

أفضل الدعاء دعاء عرفة:

وظل عليه الصلاة والسلام مستغرقاً في الدعاء، رافعاً يديه إلى السماء، والناس من حوله، القريب منهم يؤمن على دعائه عليه الصلاة والسلام، والبعيد منهم يدعو بما شاء.
ولقد رويت عنه ﷺ أدعية كثيرة دعا بها في هذا الموقف، ولكن إسناد أكثرها فيه لين، ولا شك أن الدعاء بها (على ضعف إسنادها) أفضل بكثير من الدعاء بغيرها، إلا دعاء دعت إليه الضرورة، كالدعاء بالنصر على أعداء الله، والدعاء بجمع شمل المسلمين، وتوحيد صفوفهم، وتطبيقهم لشرع الله، فضلاً عما يخص كل فرد في خويصية نفسه، فإن الله تعالى أمر عباده أن يدعوه فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وقال عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ. .﴾ فما بالك أيها الحاج بالدعاء يوم عرفة!!.

وذكر الله تعالى أمثلة من أدعية بعض رسله في كتابه العزيز ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ. .﴾. ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي

مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾. ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمۡوَٰلًا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾. إلى غير ذلك من أدعية الأنبياء الواردة في الكتاب العزيز.

ومن أمثلة الدعاء الآيتان الأخيرتان من سورة البقرة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ. .﴾ وفي أوائل سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ وفي أواخرها: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ. .﴾ إلى قوله: ﴿. . إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ وفي سورة الفرقان في ذكر صفات عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ إلى غير ذلك من آيات الدعاء الكثيرة.

وكذلك الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ فكثيرة جداً، والدعاء بها أفضل الدعاء. .

نعم إن الأفضل هو أن يدعو المرء ـ حاجاً أو غير حاج ـ بالمأثور عنه صلوات الله وسلامه عليه، ولكن هذا لا يعني أن

يقتصر على ذلك، إذا لم يجد، أو لم يعلم أنه لا يتفق وحاجة خاصة به، ولكن المهم أن يلتزم الإنسان بآداب الدعاء وأصوله. . ووفق ما علمنا رسول الله ﷺ.

والدعاء كما جاء في الحديث: مخ العبادة، لأن الداعي يتصف فيه بالفقر، والفقر صفة ذاتية، ينفرد بها العبد دون الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ حتى إن جهل العبد قدر نفسه. . وكلما عرف المرء قدر نفسه وألح بالدعاء والتضرع لله عز وجل والتذلل له، ازداد قربه من الله، بقدر معرفته بقدره وبنفسه، ولذا قيل من عرف نفسه فقد عرف ربه، وقال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ ولم يقل بنبيه، ولم يقل برسوله، ولم يقل بحبيبه، لأن هذه صفات زائدة، وليست ذاتية كالفقر، والتذلل، ولذلك كان كل عمل ـ مشروع ـ يحقق فقر الإنسان الذاتي وذله الذاتي، وضعفه الذاتي، وعجزه الذاتي، هو السبيل إلى رضوان الله عز وجل، والدعاء يجمع هذه كلها، وبذلك أصبح بحق وحقيق مخ العبادة، والدعاء مطلوب في كل وقت وحين لذلك يقول الله عز وجل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ ويتضمن معناها متى دعاه، وإن كان للدعاء مواطن،

ومواقيت يكون فيها أقرب للإجابة.

ومن أعظم هذه المواطن الوقوف بعرفة.. وهو أعظم أيام السنة وأفضلها، واستدل العلماء على ذلك بحديث عائشة رضي الله عنها حيث قالت: (إن رسول الله ﷺ قال، ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار، من يوم عرفة..)[1].

ومما أُثر من دعاء النبي ﷺ في ذلك اليوم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.. اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي صدري نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، اللهم اشرح لي صدري، ويسر لي أمري.. إلى غير ذلك من الأدعية، وأفضلها بطبيعة الحال مما أثر عنه ﷺ، ـ حتى ولو كان في سنده لين ـ كما ذكرنا.

وقد رأى بعض العلماء أن من المصلحة تزويد الحجاج ببعض الأدعية المأثورة الواردة عن الرسول ﷺ التي كان يدعو بها في مختلف الأوقات حتى تكون في متناول أيديهم ليدعوا بها الله ويتضرعوا إلى الله عز وجل ويتعلموا آداب

(١) رواه مسلم.

الدعاء ويدعون بصوت خافت.

ومن الأدعية الواردة التي دعا بها رسول الله ﷺ في أوقات مختلفة:

«اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، اللهم أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنوبي، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله بيديك، والشر كله ليس إليك، أستغفرك وأتوب إليك، اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل».

«اللهم اقسم لي من خشيتك ما تحول به بيني وبين

معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغني به جنتك، ومن اليقين ما تهون به عليّ مصائب الدنيا، اللهم متعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارث مني، واجعل ثأري على من ظلمني، وانصرني على من عاداني، ولا تسلّط عليّ بذنبي من لا يخافك ولا يرحمني، اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك اللهم بكل اسم سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني وهمي، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني وبدني، وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي».

«اللهم أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً ولساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم».

«يا حي يا قيوم ياذا الجلال والإكرام برحمتك نستغيث، ومن عذابك نستجير، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين، اللهم إليك

المشتكى وبك المستعان وأنت المستغاث وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

«اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجأة نقمتك وجميع سخطك.

اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء».

«اللهم اجعلني لك ذكاراً ولك شكاراً ولك أواهاً ولك مخبتاً، رب تقبل توبتي وأجب دعوتي وثبت حجتي وسدد لساني واسلل سخيمة قلبي، اللهم إنك أمرت بالدعاء ووعدت بالإجابة وقد سألتك كما أمرتني، فاستجب لي كما وعدتني. اللهم هذا الجهد وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اللهم صل على نبيك محمد وعلى آله وصحبه وسلم»[1].

وفي ذلك الموقف نزل قوله تعالى ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ . .﴾ وهي قاصمة الظهر لكل من ادعى النبوة بعده ﷺ، وحكم من الله

(١) أحكام مناسك حج بيت الله الحرام ـ عبد الله بن زيد آل محمود.

مبرم أنه كذاب، ولأنه ﷺ أخبر فقال: لانبي بعدي[1]. . . ولقد كانت هذه الآية الشريفة مؤذنة بانقطاع الوحي بعد انتقال سيدنا محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ولكن الله تعالى، حين قطع الوحي، خص هذه الأمة المرحومة بما يسمى في علم الأصول بالاجتهاد، إكراماً لنبيها سيدنا محمد ﷺ، فكل نازلة جديدة يجتهد أهل الذكر في وضعها في الإطار العام للتشريع الإسلامي على أسس وحدود وضوابط مبنية في علم الأصول، ولقد بدأ الاجتهاد في حياة الرسول ﷺ، وقصة سيدنا معاذ حين ولاه الرسول ﷺ على اليمن أشهر من أن تذكر. . والله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ والعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

وظل ﷺ وصحبه واقفين حتى غربت الشمس. وهم مستغرقون في الدعاء، والله تعالى يباهي بهم الملائكة يقول: «هؤلاء عبادي جاؤوني شعثاً غبراً يرجون رحمتي ويخافون عذابي، ولم يروني، فكيف لو رأوني. .».

---

(١) متفق عليه.

ثم أفاض ﷺ من عرفة، دون أن يصلي المغرب بها، وضم ﷺ زمام ناقته إليه، حتى إن رأسها ليصيب طرف رحله، حتى يكون السير في سكينة وهدوء، قال سيدنا أسامة، وكان رديفه ﷺ، التفت النبي إلى الناس يحذرهم من الاسراع حتى لا يتأذى الضعفاء قال: «عليكم بالسكينة والوقار فإن السير ليس في إيضاع الإبل» وللبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما «فإن البر ليس بالايضاع»، (والإيضاع هو الإسراع).

فانظر إلى هذا النظام، والدعوة إليه، والحرص عليه، بل وانظر إلى هذه الشفقة وهذه الرحمة بالإنسان، وبالحيوان، إذ كان المحرم يحرم عليه أن يقتل ذبابة أو نملة: ﴿وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً﴾ فيحرم على المحرم أن يصطاد الحيوان البري، أو يتسبب في اصطياده، ولو غير مأكول اللحم كالقرد والخنزير، مملوكاً، أو مباحاً، مستأنساً، أو متوحشاً، فرخاً أوبيضاً، ولو طير ماء. . الخ. . بل يحرم على المحرم أن يذبح صيد شخص غير محرم، ومن باب أولى ما صاده المحرم. . إن الحج كله إنما هو تأكيد وغرس لهذه الرحمة في النفوس، بدأها الله تعالى بافتداء

سيدنا إسماعيل بكبش، فكانت سنة الأضاحي كل عام لنتذكر الشفقة بالإنسان، وعواطف الأبوة، ثم جاءت زمزم، فنحن نشرب منها لنتذكر رحمة الله بمن التجأ إليه، وتوكل عليه، ولذلك حرص سيدنا محمد ﷺ أن تتمشى أفعال الحج بما يتناسب وهذه الرحمة فلا زحام في الطواف، ولا تقاتل على الحجر، ولا تسابق للسيارات، ولا تدافع ولا إيذاء للناس و«اتقوا الله ـ كما قال ﷺ ـ وسيروا سيراً جميلاً، لا تطأوا ضعيفاً، ولا تؤذوا مسلماً» ألف صلاة، وألف سلام عليك، يا سيدي يا رسول الله، فإنك النعمة الكبرى، والرحمة المهداة، وقد وصفك الله تعالى بأنك ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ مؤمناً وغير مؤمن.

المبيت في مزدلفة:

وسار الركب، وقلوب الصحابة تتدفق رحمة وأجسادهم تشيع وقاراً وسكينة، حتى وصلوا مزدلفة ليلة السبت العاشر من ذي الحجة، فنزل ﷺ، ونزلوا معه، ثم توضأ ﷺ وصلى بالناس المغرب والعشاء قصراً وجمع تأخير، بأذان واحد، وإقامتين، ولم يصل بينهما شيئاً.

وتجلت الرحمة هنا أيضاً، فقد أذن للنساء والضعفاء أن يتوجهو إلى منى، حيث جمرة العقبة، وأذن للنساء ـ دون الرجال ـ برميها ليلاً، على أن من بين أهل العلم من يرى وجوب الانتظار وعدم الرمي إلا بعد طلوع الشمس وفقاً لحديث ابن عباس رضي الله عنه(١).

وفي ذلك رخصة بالرمي والطواف بعد منتصف الليل، عند شدة الزحام، وقد أصبح الأخذ بهذه الرخصة من ضرورات الحج بعد أن تضاعفت أعداد الحجيج أضعافاً كثيرة، وقد أجاز الأئمة مالك وأحمد والشافعي الرمي وطواف الإفاضة بعد منتصف الليل، فكان ذلك سنة حميدة، وحكمة بليغة من صاحب الشريعة ﷺ، مع جواز تقديم الطواف على الرمي، فرضي الله عنهم من أئمة أفذاذ، وصدق الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾، ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ... ﴾.

وبات ﷺ هو ومن تبقى معه بمزدلفة، وصلى بالناس

---

(١) حجة النبي ﷺ كما رواها عنه جابر رضي الله عنه ـ محمد ناصر الدين الألباني.

الفجر بغلس، ثم أتى ﷺ المشعر الحرام فوقف هناك، وقال ـ رحمة بأمته ـ «وقفت هنا والمزدلفة كلها موقف» ووقف الركب معه ﷺ، يذكرون الله تعالى بالتهليل والتحميد، والدعاء امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾. الآية.. قالوا وسمى المشعر، لأنه كانت تشعر فيه البدن، (أي تجرح جرحاً خفيفاً ليعلم أنها مهداة للحرم).

رمي جمرة العقبة:

وقبل أن تطلع الشمس بقليل اتجه ﷺ هو ومن معه إلى منى قاصدين جمرة العقبة، وأمر ﷺ «الفضل» أن يلتقط له سبع حصيات من مزدلفة، فجعل الرسول ﷺ ينفضهن في كفه ويقول «بأمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين..» وواصل سيره حتى إذا أتى بطن «محسر» حرك ناقته، وقال «عليكم السكينة» وأسرع حتى جاوز الوادي.. ومحسر هذا، بكسر السين، واد بين المزدلفة ومنى، قدر رمية الحجر، سمي بذلك لحسر أصحاب الفيل فيه، ونزول العذاب عليهم به.. فكان الحجاج عندما يسرعون به يذكرون هذه الواقعة للاعتبار والشكر، وهكذا كانت

عادته ﷺ في المواقع التي نزل فيها بأس الله بأعدائه، يسرع منها لأنها كانت محل غضب الله، فهو يحب أن يجوزها بأسرع فرصة، معتبراً، شاكراً، سائلاً الله تعالى ألا يحل بعصاة أمته، ما حل بهؤلاء فإنه ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وسلك رسول الله ﷺ الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى، جمرة العقبة.

ولما وصل ﷺ جمرة العقبة، وقف أسفل الوادي وجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه واستقبل الجمرة، ورماها بسبع حصيات، الواحدة في قدر الفولة، وكان ﷺ يكبر مرة واحدة مع كل حصاة، لا قبلها ولا بعدها، والمراد بجمرة العقبة البناء المعروف، وما تحته، الكائن في آخر منى من ناحية مكة، في رأس وادي المحصب، عن يمين الماشي إلى مكة المكرمة، وسميت جمرة باسم ما يرمى فيها وهي الحجارة، من باب ما يسمى في علم البيان بالمجاز المرسل.

والجمرات الثلاث، كما هو معروف. قالوا قد تمثل الشيطان لسيدنا إبراهيم في هذه المواقع الثلاثة ليصرفه عن امتثال أمر الله في ذبح ابنه عليه السلام، فكان سيدنا إبراهيم

عليه السلام من طاعته لأوامر الله تعالى مهما كلفه ذلك من ثمن، ونحمد الله تعالى أن لم يجعل علينا في الدين حرجاً، ولم يكلفنا سبحانه ما لا طاقة لنا به ولم يحمل علينا إصراً كما حمله ـ تعالى ـ على الذين من قبلنا.

هذا وفي مناهج النووي وقريب منه في مناسك الكرماني، أن النبي ﷺ لما رمى جمرة العقبة رجع إلى منزله بمنى، دعا بالذبائح فنحرها، وقد نحر مئة بدنة، نحر بنفسه منها ثلاثاً وستين، ونحر عليّ الباقي، ثم قال للحلاق خذ، وأشار إلى جانبه الأيمن ثم الأيسر ثم دفعه إلى أبي طلحة ليفرقه بين الناس، فأقبلوا يأخذون الشعرة والشعرتين والثلاث يتبركون بها ويفرحون لحصولهم عليها.

وكما فعل ﷺ بعرفة، والمزدلفة قال لأصحابه ـ وهو الرحمة العظمى ـ نحرت هنا، ومنى كلها منحر (قالوا إلا ما وراء جمرة العقبة مما يلي مكة المكرمة فإنه ليس من منى).

وقال جابر رضي الله عنه: خطبنا ﷺ يوم النحر ـ وكانت خطبته في الخيف من منى ـ فقال: «أي يوم أعظم حرمة؟ فقالوا: يومنا هذا، قال: فأي شهر أعظم حرمة؟ قالوا: شهرنا هذا، قال: أي بلد أعظم حرمة؟ قالوا بلدنا هذا، قال: فإن دماءكم

وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: «اللهم اشهد»[1].

وقال ﷺ، تيسيراً لأمته في الأضاحي «كل فجاج مكة طريق ومنحر»، وجاءه ﷺ رجل فقال لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح فقال له الرؤوف الرحيم صلوات الله وسلامه عليه: اذبح ولا حرج. وجاءه آخر فقال طفت قبل أن أرمي، فقال ﷺ: افعل ولا حرج. فما سئل عن شيء يومئذ قدم أو أخر إلا قال لا حرج.. ولكن ليس معنى هذا أن التأخير أو التقديم في الفضل سيان لأن الفضل كل الفضل في ما قدمه أو أخره أو فعله سيد الهداة وإمام الأئمة، صلوات الله وسلامه عليه إلا من قدم ناسياً أو معذوراً فعسى أن ينال درجة الاتباع. والله يضاعف لمن يشاء.. وقد رفع عن أمة محمد الخطأ والنسيان رحمة بهم.

(١) حجة النبي ﷺ كما رواها عنه جابر رضي الله عنه ـ محمد ناصر الدين الألباني.

طواف الإفاضة:

وبعد الحلق والنحر توجه ﷺ في اليوم نفسه(يوم النحر) إلى مكة المكرمة ليؤدي طواف الإفاضة، بعد أن طيبته السيدة عائشة رضي الله عنها بأطيب ما وجدت من الطيب، ذلك لأن الحاج في مثل هذه الحالة يكون قد تحلل التحلل الأصغر فيحل له كل شيء كان محرماً عليه في الإحرام إلا النساء والصيد، فإذا طاف طواف الإفاضة حل له كل شيء أباحه الله له.

وطاف ﷺ طواف الإفاضة راكباً ليهتدي إليه من يريد أن يسأل عن شيء من مناسك الحج كما أنه ﷺ كان يكره أن يضرب الناس بين يديه، وكان كلما مر بالركن استلمه بمحجنه ثم قبل طرف المحجن.

والثابت أنه ﷺ لم يرمل في طوافه هذا ولم يضطبع. والاضطباع هو كشف الكتف الأيمن في الطواف.

وبعد الطواف أناخ راحلته ﷺ ثم صلى ركعتي الطواف عند مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام. (وتصح ركعتا الطواف في أي مكان من المسجد، ويجب الابتعاد عن مقام إبراهيم، ويتعذر على من أراد الصلاة عند المقام لشدة الزحام، ولوقوع المقام في المطاف، ومن أصر على الصلاة عند

المقام فإنه يؤذي الناس، ويؤذي نفسه، ويقع فيما حرم الله..) ثم عرج على زمزم فناوله السقاة دلواً شرب منه ﷺ وكان يود ﷺ أن ينزع الدلو بنفسه تواضعاً منه ﷺ ومبالغة في الأدب مع الله عند هذه البئر المباركة فإن ذلك من تعظيم حرمات الله إلا أنه قال لأصحاب السقاية من بني عبد المطلب: «.. فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم ووضعت الحبل على هذا» وأشار إلى عاتقه الشريف.. صلوات الله عليه وسلامه.

الرجوع إلى منى:

ثم رجع ﷺ إلى منى في اليوم نفسه (العاشر من ذي الحجة) فبات بها ليالي التشريق الثلاث (ليلة ثاني عيد النحر وليلتين بعدهما) لأنه ﷺ لم يتعجل وإلا لكفته ثاني العيد وليلة ثالثة.

وكان ﷺ كل يوم يذهب لرمي الجمرات بعد زوال الشمس (هكذا فعل ﷺ وهكذا ينبغي أن نأخذ عنه المناسك) وكان ﷺ يبدأ بالجمرة الأولى وهي الصغرى التي تلي مسجد منى، ثم يتقدم أمامها مستقبلاً الكعبة ويقف للدعاء، قالوا بمقدار قراءة البقرة بإسراع، وقل من يفعل ذلك اليوم في ما

رأيت، ثم يتوجه ﷺ إلى الجمرة الوسطى، فيفعل مثل ما فعل في الأولى من رمي للجمرات ووقوف للدعاء بعد الرمي، ثم يأتي جمرة العقبة فيرميها لكنه لا يقف عندها للدعاء، هكذا كان يفعل ﷺ في هذه الأيام الثلاثة التي تلي يوم النحر، وتسمى بالأيام المعدودات لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.. الآية.

وقد رخص ﷺ لأصحاب الأعذار بعد رمي جمرة العقبة في يوم النحر ألا يبيتوا بمنى، فأذن لسيدنا عباس رضي الله عنه أن يبيت بمكة المكرمة للسقاية، كما أذن ﷺ لرعاة الإبل أن يبيتوا خارج منى عند الإبل بعد جمرة العقبة، ثم يأتون في ثالث أيام النحر، فيرمون لليوم الماضي وهو ثاني النحر، ثم يرمون عن اليوم الذي حضروا فيه، وهو ثالث النحر، ثم إن شاءوا تعجلوا، ويسقط عنهم رمي اليوم الرابع، وإن شاءوا أقاموا اليوم الرابع ويرمون مع الناس.

وفي يوم الثلاثاء، وكان آخر أيام التشريق أي الموافق للثالث عشر من ذي الحجة توجه ﷺ بعد الرمي إلى المحصب حيث صلى الظهر والعصر (والمغرب والعشاء من

ليلة الأربعاء الرابع عشر من ذي الحجة). وبات ﷺ بالمحصب تلك الليلة في قبة ضربها له أبو رافع. إلا أنه لم يكمل الليل في المحصب فقد اتجه في تلك الليلة إلى مكة المكرمة فوصلها قبل صلاة الصبح سحراً، وطاف بها طواف الوداع، ثم صلى ركعتين خلف المقام، ثم أتى الملتزم فوضع صدره ووجهه عليه، وبسط ذراعيه بسطاً، ولم يرمل ولم يضطبع في هذا الطواف.

وبطواف الوداع تم حجه ﷺ، وكان قد عزم على العودة بعد ذلك، فخرج ﷺ من أسفل مكة من الثنية السفلى عائداً إلى المدينة المنورة.

عاد الركب المبارك بالنبي ﷺ وبأصحابه الذين جاؤوا معه من المدينة المنورة، بعد طواف الوداع، ثم ودع النبي ﷺ بلده مكة، كما ودع أمته في تلك الحجة فقال: هذه حجة الوداع، ولم يكن أحد يعلم لماذا سماها بهذا الاسم.. وسار الركب ليالي وأياماً حتى إذا وصل إلى ذي الحليفة، بات ليلته تلك، وصلى رسول الله ﷺ بالناس المغرب والعشاء والفجر، ثم مشى إلى المدينة، فلما رأى البيوت كبر ثلاثاً ثم قال:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده».

وعلى هذا النحو تمت حجته ﷺ، وقد أوضح لأصحابه ولمن بعدهم المناسك التي يسيرون عليها، ويرشدون الناس إليها، حتى يسير الجميع وفق شرع الله ونهجه ويأخذوا مناسكهم من رسول الله ﷺ كاملة غير منقوصة.

ولا شك أن الحج أكبر مؤتمر إسلامي يجتمع فيه المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها، ويتعرف بعضهم على بعض ويلتقون في صعيد واحد لهدف واحد وغاية واحدة.

ويكاد الحج أن يكون مشهداً فريداً يهرع الناس فيه إلى الله تعالى، يقفون بين يديه شعثاً غبراً، كل يرتجي رحمته، وكل يطلب مغفرته وكل يخشى ذنبه، والجميع يأملون عفو الله ومغفرته. وهم على ثقة من أن رحمة الله قد وسعت كل شيء.

وتتأكد هنا المساواة المطلقة، لباس واحد، وموقف واحد، وعمل واحد، الله ربهم جميعاً، وكلهم له عبيد.

ويتأكد فيه إيثار الآخرة على الدنيا، والباقي على الفاني، فيهجر الحجاج راحاتهم، ويتركون فلذات أكبادهم، ويفارقون أوطانهم، ويعزفون عن شهواتهم المشروعة، طمعاً فيما وعدهم الله به، يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه:

«حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها، وحجة مبرورة ليس لها جزاء إلا الجنة».

ويقول: «الحجاج والعمار وفد الله عز وجل وزواره، إن سألوا أعطاهم، وإن استغفروه غفر لهم، وإن دعوا استجيب لهم، وإن شَفعوا شُفِّعوا».

ويقول: «ما رؤي الشيطان في يوم أصغر ولا أدحر، ولا أحقر ولا أغيظ منه يوم عرفة»، وما ذلك إلا مما يرى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام.

ذلك الفضل من الله، فيا سعادة الطامعين فيه، ويا سعادة العاملين لنيله، ويا سعادة المتنافسين فيه. ليفرح الجميع بهذا اللقاء المبارك في هذا الصعيد الطيب.. في هذا اليوم الطيب المبارك، وهذا الموقف يحتاج إلى الأدب، فالأدب والإخلاص روح العبادة، ومعهم طيب المأكل والملبس

والمركب لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وهو أغنى الأغنياء عن الشرك ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ . هكذا قال عز وجل، وإنما يتقبل الله من المتقين .

* * *

خلاصة حج النبي ﷺ

١ - اغتسل وتطيب ولبس الإحرام في ذي الحليفة .

٢ - صلى ركعتين بعد طلوع الشمس سنة الإحرام في مسجد ذي الحليفة .

٣ - أحرم بالحج مفرداً، ثم بدأ التلبية، وذلك على ناقته ليراه الناس .

٤ - ساق معه الهدي من ذي الحليفة، وأشعر البدن - علمها لتعرف أنها مهداة للحرم - وسار الناس بين يديه وعن يمينه وشماله، ومن خلفه، فكانوا مد البصر حيثما نظر .

٥ - لما وصل مكة طاف طواف القدوم، وسعى سعي الحج بعد أن بات على مشارف مكة في سرف، حيث حاضت عائشة رضي الله عنها .

٦ - أمر الصحابة من لم يسق معه الهدي أن يجعلها عمرة ويتحلل، وقال: لو لم أسق الهدي لجعلتها عمرة، فأصبح قارناً، ومن تحلل من الصحابة أصبح متمتعاً .

٧ - مكث مع الصحابة بعد الطواف والسعي بالأبطح يصلي بالناس أربعة أيام حتى صباح الخميس .

٨- خرج بالصحابة يوم التروية إلى منى، وصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وبات فيها استعداداً ليوم عرفة، ثم صلى بها الفجر.

٩- توجه بعد طلوع الشمس من يوم الجمعة إلى عرفات حيث ضربت له خيمة في نمرة قبل عرفات، فأقام حتى زالت الشمس.

١٠- ركب ناقته بعد الزوال، وسار حتى أتى بطن الوادي، وادي عرنة، حيث خطب خطبة عرفة المشهورة، ثم صلى بالناس الظهر والعصر جمعاً وقصراً، بأذان واحد وإقامتين، وكانت صلاته في مسجد نمرة، وهي قبل عرفة.

١١- توجه بعد الصلاة على ناقته إلى عرفات، فوقف عند الصخرات أسفل الجبل ـ جبل الرحمة ـ وقال: وقفت ههنا، وعرفة كلها موقف.

١٢- وقف على ناقته القصواء يدعو الله تعالى ويثني عليه ويذكر حتى غربت الشمس، وحث الناس على الدعاء، وقال: أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

١٣- دفع من عرفات بعد غروب الشمس، وأمر الناس بالهدوء والسكينة، وسار إلى المشعر الحرام ـ المزدلفة ـ فصلى فيها المغرب والعشاء جمعاً وقصراً جمع تأخير.

١٤- أذن للنساء والضعفاء بالدفع من مزدلفة إلى منى بعد منتصف الليل، وأذن لهم برمي جمرة العقبة، وبطواف الإفاضة بعد منتصف الليل، فذهب من شاء إلى منى فرمى ثم طاف، وذهب من شاء إلى مكة فطاف، ثم رجع إلى منى فرمى وذبح وقصر.

١٥- بات عند المشعر الحرام حتى صلى الفجر، ثم أتى المشعر الحرام فوقف يدعو الله تعالى، وقال: وقفت ههنا، ومزدلفة كلها موقف.

١٦- دفع من مزدلفة قبل طلوع الشمس إلى منى، فرمى الجمرة بسبع حصيات.

١٧- رجع على خيمته بمنى، ودعا بالبدن، فنحر بيده الشريفة ثلاثاً وستين، وأمر علياً أن ينحر بقية المئة، وأخذ من لحمها جميعاً، وطبخ له اللحم فأكل منه ومن معه.

١٨- دعا حلاقه فحلق رأسه، وأمر الحلاق أن يبدأ بشقه الأيمن ثم الأيسر، ودفع شعر رأسه إلى أبي طلحة ليفرقه في

الناس ابتغاء البركة، فمنهم من أخذ الشعرة والشعرتين والثلاث.

١٩- خطب الناس في يوم النحر خطبة حذرهم فيها من الدماء وأكل أموال الناس أشد تحذير، وسئل عمن قدم الحلق على الرمي، ومن قدم الطواف على الرمي... فقال: افعل ولا حرج.

٢٠- أتى المسجد الحرام فطاف طواف الإفاضة، ثم صلى ركعتين لطوافه عند مقام إبراهيم، ثم أتى زمزم فشرب وهو سنة.

٢١- رجع بعد ذلك على منى فبات فيها ليلة ثاني العيد، ثم رمى بعد الزوال الجمرات الثلاث الصغرى، ثم الوسطى، ودعا الله تعالى بعد رميهما، ثم رمى العقبة الكبرى ولم يدع بعدها.

٢٢- بات ليلة الثاني عشر ثالث ليالي العيد، ثم رمى الجمرات الثلاث بعد الزوال كما فعل في اليوم الثاني.

٢٣- تأخر فبات ليلة الثالث عشر، وهو رابع أيام العيد، ثم رمى الجمرات الثلاث بعد الزوال، كما فعل في اليومين الأولين.

٢٤- نزل إلى المحصب من منى فبات ليلة الأربعاء الرابع عشر من ذي الحجة، ثم أتى المسجد قبل الفجر فصلى الصبح، ثم طاف طواف الوداع، ثم صلى ركعتي الطواف، ثم استلم الركن فقبله، ثم أتى الملتزم فالتزمه، ودعا الله كثيراً...

٢٥- خرج من مكة عائداً إلى المدينة المنورة، فلما وصل ذي الحليفة بات فيها، ثم صلى الفجر، ودخل المدينة المنورة.

* * *